نص المحـــــاضرة التـى ألقاهـــــا ....
وزير التعليـم العالي ورئيس مجلس الادارة ....

تمهيد

• • موضـــوع حديثي هذا هوالتعرف على كيفية معاملة ديننا الإسلامي العظيم للمرأة .. هل هو ظالم لها ؟ ومحطم لطموحها ؟ وحاجز لها من الاسهام في حياتها والتأثير فيها ؟ أم هو معل لمنزلتها ، وحافظ لكرامتها ، وصائن لها عن الابتذال والتردي ؟ .

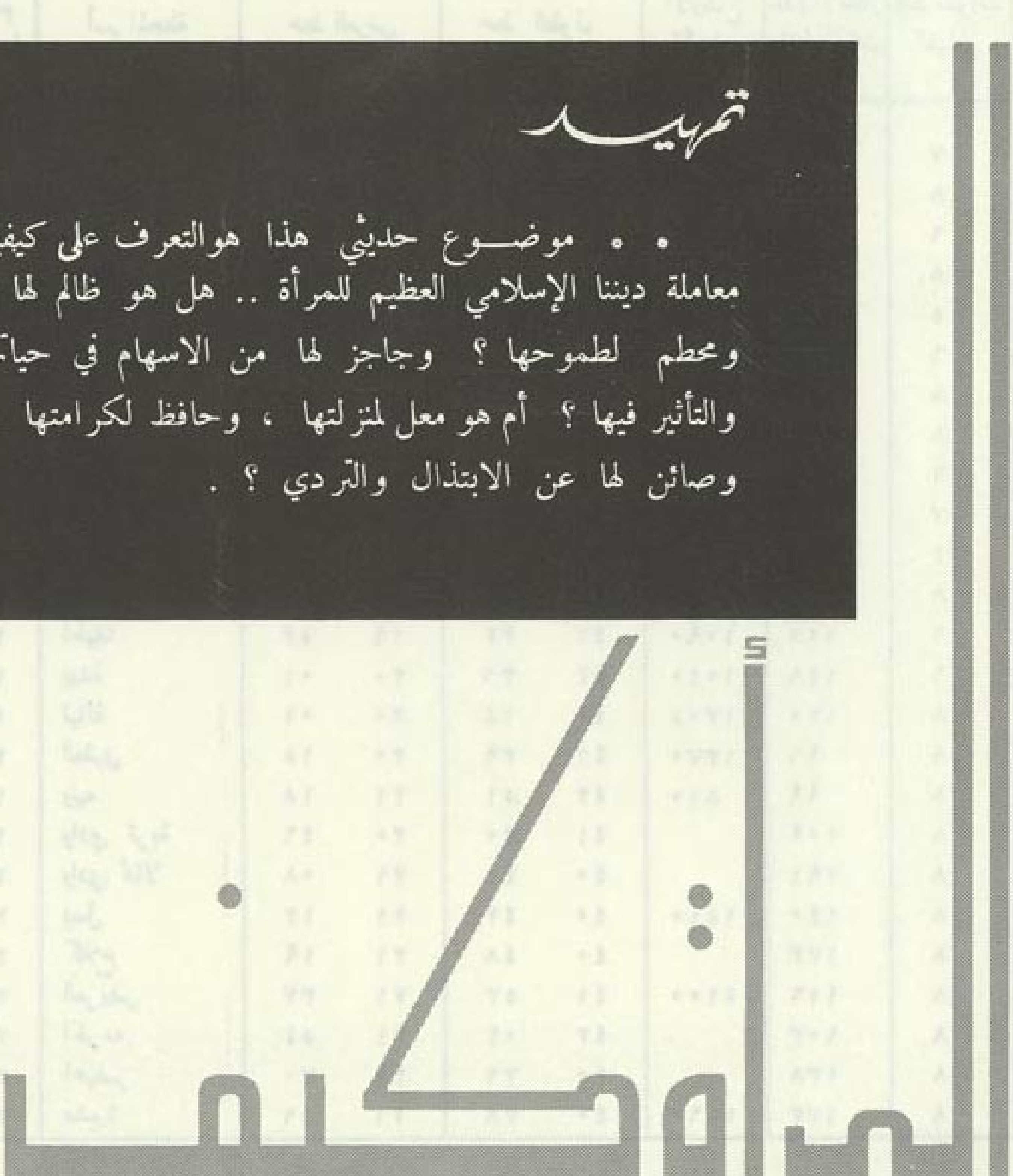

•••••••••••• معـــالى الشـيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ

•••••••• بمقر نادى جدة الأدبى مساء يوم الأربعاء ١٦/١١/٩٥هـ

وهذا الموضوع كما تعلمون واسع الأبعاد طويلها .. لكنني سأحاول الاختصار والإيجاز ضنا بوقتكم ، وراغباً إلى غيري ممن هو أقدر مني أن يتحدث عنه بأوسع مما فعلت لأنه يستحق الإعادة ، ويحتاج إلى الشمول وينبغي أن يكون أمره واضحاً لكل الناسين أو الغافلين أو المخدوعين .

المرأة في العصور القديمة

• لم تكن المرأة في عصر من عصور التاريخ السحيقة في المكانة التي تليق بها ، وكانت الأمم تتفاوت في درجة تجاهلها لها وإهدارها حقوقها وآخرها أمة العرب قبل الإسلام حيث كانوا يئدون البنات خشية العار ، ولئلا يطعموا معهم ، وذاك أمر شديد القسوة - أن يعمد الأب إلى دفن ابنته حية حيث تقضي نحبها تحت أنقاض الرمال المتداعية بفعل أقرب الناس إليها .

قال تعالى عن ذلك : (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون) .

وبعث الله سيدنا محمداً عليه أفضل الصلاة والسلام بدعوته العظيمة الاصلاحية فأوقف سلسلة المظالم التي تواجهها المرأة ، وحدد لها مكانها الطبيعي ، وأعلن أنها والرجل في دين الله سواء ، وأنزل الله عليه كتابه العظيم الذي يعلن في وضوح وفي أكثر من موضع هذه الحقيقة المشرقة . قال تعالى : (يا أيها الناس إتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءاً) والخطاب للناس (خطاب) لذكورهم وإناثهم .

وقال تعالى : (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) ويوم القيامة ينادي الرجال وزوجاتهم من الصالحين (ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون) . وبعد أن كانت سنة العرب قبل الإسلام أن لا يؤول إلى النساء من ميراث الرجال شيء وكانوا يقولون (لا يرثنا إلا من يحمل السيف ويحمي البيضه) فإذا مات الرجل ورثه ابنه . فإن لم يكن فأقرب من وجد من أوليائه أباً كان أو أخاً أو عماً .

جاء الإسلام فرفع هذا الظلم عن النساء ، قال تعالى : (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر

نصيباً مفروضاً) .

ثم تتالت المواقف الإنسانية الراحمة من نبيّ الأمة بالمرأة في كل مراحلها . . حدث الإمام البخاري عن سعد ابن أبي وقاص قوله : (مرضت بمكة مرضاً أشفيت منه على الموت فأتاني النبي صلى الله عليه وسلم يعودني . فقلت : يا رسول الله ، ان لي مالا كثيراً وليس يرثني إلا ابنتي أفأتصدق بثلثي مالي ؟ . قال لا . قلت فالشطر ؟ . قال : لا . قلت الثلث ؟ قال : الثلث والثلث كثير ، إنك إن تركت ولدك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس . وأنك لن تنفق نفقة إلا أجرت عليها ، حتّى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك) .

وقال تعالى : (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجه). وهي درجة الرعاية والقوامة والحماية . لا يتجاوز بها جحود حقها أو إهدار كرامتها ، وفي حديث مسلم عن أسماء بنت عميس المهاجره : أنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم وهو بين أصحابه فقالت : بأبي وأمي أنت يا رسول الله . أنا وافدة النساء إليك ، إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة . فآمنا بك وبإلهك . إنا معشر النساء محصورات مقصورات ، قواعدُ بيوتكم ، وحاملاتُ أولادكم ، وإنكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات وعيادة المرضى ، وشهود الجنائز ، والحج بعد الحج ، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله عز وجل ، وأن أحدكم إذا خرج حاجاً أو معتمراً أو مجاهداً ، حفظنا لكم أموالكم ، وغزلنا أثوابكم ، وربينا لكم أولادكم ، أفنشارككم في هذا الأجر والخير ؟ فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال : هل سمعتم مسئلة امرأة قط أحسن من مسئلتها في أمر دينها من هذه ؟ فقالوا يارسول الله ماظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا . فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إليها فقال :(افهمي أيتها المرأة وأعلمي من خلفك من النساء ان حسن تبتل المرأة لزوجها ، وطلبها مرضاته ، واتباعها موافقتَه يعدل ذلك كلّه). فانصرفت المرأة وهي تهلل حتى وصلت إلى نساء قومها من العرب وعرضت عليهن ما قاله

لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ففرحن وآمن جميعهن .

وسئلت عائشة رضي الله عنها ما كان عمل النبي صلى الله عليه وسلم في بيته ؟ فقالت (كان في مهنة أهله حتى يخرج إلى الصلاة) . تريد أنه يعاونهن ويعمل معهن .

وكانت فضليات الصحابة يخرجن في رفقة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى غزواته يداوين المرضى ، ويأسون الجرحى ويسقين الماء منهن أمية بنت قيس الغفارية قالت : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسوة من بني غفار فقلنا : يا رسول الله قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا — وهو يسير إلى خيبر — فنداوي الجرحى ، ونعين المسلمين بما استطعنا فقال (على بركة الله) . وأم سينان الأسلمية جاءت إلى رسول الله وهو خارج إلى خيبر فقالت يا رسول الله : أخرج معك في وجهك هذا . أخرز السقاء ، وأداوي المريض والجريح . إن كانت جراح — ولا تكون — وأبصر الرحل فقال صلى الله عليه وسلم . أخرجي على بركة الله . فإن لك صواحب قد كلمنني وأذنت لهن من قومك ومن غيرهم . فإن شئت فمع قومك . وإن شئت فمعنا . قلت : معك . قال فكوني مع أم سلمة زوجتي فكنت معها — ولكثير غيرهن .

وكانت المرأة في الإسلام — كما كانت في الجاهلية — تجير الخائف وتفك العاني فقد أجارت أم هانيء بنت أبي طالب رجلين من أحمائها كتب عليهم القتل . وفي ذلك تقول : —

(لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة فر إلى رجلان من أحمائي من بني مخزوم فدخل على علي بن أبي طالب أخي فقال : والله لأقتلنهما . فأغلقت عليهما باب بيتي . ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : مرحباً وأهلا يا أم هانيء ما جاء بك ؟ . فاخبرته خبر الرجلين وخبر علي . فقال عليه الصلاة والسلام : قد أجرنا من أجرت يا أم هانيء .

وصان الإسلام سيرة المرأة ، وحمى عرضها كأكمل ما تكون الصيانة والحماية . حيث قال تعالى في حق قاذفي

المحصنات : (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون) . فجعل جل شأنه للقاذف عقوبات ثلاث : (الجلد) ثم إطراح شهادته وعدم قبولها أبداً ، والثالثة هي الحاق صفة الفسق به وهي شرّ الصفات وأبشعها . وفي الآية يقول تعالى : (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون . يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين) . وجعل لها الحرية في أمرين هما أهم أمورها لديها وهو الزواج والمال . ليس لأحد أن يجبرها على زواج من تكره . . ولها أن ترفض ما لا ترضى وقد أشار إلى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله (لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا البكر حتى تستأذن) وأبطل النبي صلى الله عليه وسلم زواجاً أكرهت فيه فتاة بكر على الزواج بأمر أبيها لمصلحة له في زواجها بابن أخيه . حدثت عائشة رضى الله عنها فيما رواه النسائي : (أن فتاة دخلت عليها فقالت : أن أبي زوجني من ابن أخيه يرفع لي خسيسته وأنا كارهة . فقالت : إجلسي حتى يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء الرسول صلى الله عليه وسلم فأخبرته . فأرسل إلى أبيها فدعاه . فجعل الأمر إليها . فقالت يا رسول الله : قد أجزت ما صنع أبي . ولكني أردت أن أعلم النساء أن ليس للاباء من الأمر شيء)! وقصة « بريرة » وهي جارية من جواري الحبشة ملكها عتبة بن أبي لهب وزوجها عبداً من عبيد المغيرة ما كانت لترضاه لو كان لها أمرها ، فأشفقت عليها عائشة أم المؤمنين فاشترتها وأعتقتها . فقال لها رسول الله : ملكت نفسك فاختاري ، وكان زوجها يمشي خلفها ويبكي وهي تأباه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : ألا تعجبون من شدة حبه لها وبغضها له . ثم قال لها : إتقي الله فإنه زوجك وأبو ولدك . فقالت : أتأمرني ؟ قال : لا إنما أنا شافع : فقالت : إذا فلا حاجة لي إليه) . ولها مطلق الحرية في مالها دون نزاع أو تسلط . وكان من شأن العرب في جاهليتهم أن الرجل إذا مات عمد

أخص أوليائه وأقرب ورثته فوضَع ثوبه على امرأته . وقال : أنا أحق بها . ثم إن شاء تزوجها وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها ، وإن شاء عضلها لتفتدي نفسها بما ورثت عن زوجها . فجاء الإسلام محرماً لذلك ، ومنصفاً للمرأة ومطلقاً لحريتها في قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً). وقال تعالى مخاطباً الأزواج في معرض منحه حرية المرأة لها : (ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) . فأصبح حراماً على الرجل أن يستبقيها على كره منها ، وأعنات منه لتفتدي نفسها بما بقي من صداقها إلا إذا أتت بفاحشة مبينة فتلك ليس لها حق تطالب به ولا تتنازل عنه .

مفهوم العناية الصادقة بالمرأة

• إن الحديث عن عناية الإسلام بالمرأة وإنزالها مكانتها التي تليق بها حديث لا ينتهي أبداً ، ولا يمكن أن يتجاهله من له أدنى بصيرة بكتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ولو أردت المضي في إيضاح الدلائل والشواهد لشققت عليكم لكنني سأعود فيما يشبه الإيجاز إلى جمع شتات هذا الأمر الذي يحتاج إلى طرقه من جميع جوانبه ، عناية بدين الله المحتوي على الفضائل ، ودفعاً لأبنائنا وأحفادنا على الثقة بدينهم ، والفخر بالانتساب إليه ، والقدرة على الدفاع عنه ، فهو قد احتفى بالمرأة وحما واقعها في كل أدوار حياتها . احتفى بها في بداية حياتها وهي (ابنه) فعاب وحرم الوأد للبنات في قوله تعالى : (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراءاً على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين) .

وكان قيس بن عاصم المنقري يتحدث بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم عن ضحاياه من المؤودات وأنه ذهب باثنتي عشرة منهن فقال عليه الصلاة والسلام : (من لا يرحم لا يرحم) وأمره أن يعتق بكل واحدة جارية مؤمنة . وكان العرب يأنفون أن يداعب الرجل وليدته أو يسمح لها أن تمرح بين يديه ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يداعب الولائد من بناته وبنات أصحابه . فقد حدث البخاري عن

أبي قتادة قال (خرج علينا النبي صلى الله عليه وسلم وأمامه بنت أبي العاص على عاتقه فصلى فإذا ركع وضعها ، وإذا رفع رفعها) . وقالت عائشة رضي الله عنها : جاءتني امرأة معها ابنتاها تسألني . فلم تجد عندي غير تمرة واحدة فأعطيتها ، فقسمتها بين ابنتيها . ثم قامت فخرجت ، فدخل النبي صلى الله عليه وسلم فحدثته فقال : (من ابتلى من هذه البنات بشيء يكن له ستراً من النار) . وقال عن ابنته فاطمة رضي الله عنها . (فاطمة بضعة مني يسوءني ما يسوؤها ويسرني ما يسرها) . وقال الزهري (كانوا — يريد أصحاب رسول الله — لا يرون على صاحب ثلاث بنات صدقة ولا جهاداً لحاجتهن إليه وشغله بهن ، والعناية بتربيتهن) . واحتفى بها وأكرمها (زوجة) . قال تعالى (ومن آياته ، أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) . وأوضح نوعية التلاقي بين الزوجين حيث يقول : (وعاشروهن بالمعروف) وقال : عليه الصلاة والسلام (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي) . وأذن عليه الصلاة والسلام لفتيان الحبشة فلعبوا بحرابهم بين يديه في المسجد . ودعا عائشة رضي الله عنها فوطأ لها عاتقه ، وحاط وجهها بيده ، وأمكنها من مشاهدتهم حتى . سئمت) وروى ابن عبد ربه عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها فقال : (أهديتم الفتاة إلى بعلها ؟ قالت نعم . قال فبعثتم معها من يغني ؟ قالت لا . قال أو ما علمت أن الأنصار قوم يعجبهم الغزل . إلا بعثتم معها من يقول :

أتيناكم أتينـــــاكم فحيونا نحييـــــكم
ولولا الحبة السمراء لم نحلل بواديكم

وحدث البخاري عن الربيع بنت معوذ قالت : (جاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل حين بني علي . فجلس على فراش ، فجعلت جويريات لنا يضربن بالدف . حتى قالت إحداهن . وفينا نبي يعلم ما في غد . فقال : دعي هذا وقولي بالذي تقولين) ونظم الخالق تعالى الصلة بين الزوجين في قوله عز شأنه : (وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن

فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ») وهي كما ترون تحدد في جلاء الإطار الرائع الذي يجب أن يحتوي واقع الزوجين في الإسلام ومدى التزام كل منهما بالآخر ، وأن الحب وحده ليس هو مبرر استمرار الزوجية .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرجل طلق امرأته . لم طلقتها ؟ قال : لا أحبها . فقال : أكل البيوت بنيت على الحب ؟ أين الرعاية والذمم؟).

واعتنى الإسلام بها » أماً « فقرن القرآن الكريم بين حق الله تعالى وحق الوالدين في قوله تعالى (أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير) وقال تعالى (وبالوالدين إحساناً) وقوله صلى الله عليه وسلم (لرجل جاء إليه فقال : يا رسول الله من أحق بحسن صحبتي ؟ قال : أمك قال ثم من ؟ قال : أمك ، قال ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من؟ : قال : أبوك) . وكان صحابة رسول الله والتابعون لهم بإحسان لا ينفكون مطيعين لأمهاتهم ، محسنين إليهن . اتباعاً لأوامر الله ورسوله ومن ذلك حديث عبد الله بن الزبير وأمه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما . وذلك بعد أن دان لعبد الله بن الزبير العراق والحجاز واليمن . ثم أخذ عبد الملك بن مروان يقاومه . فغلبه على العراق ثم جهز له الحجاج بن يوسف الذي أخذ يغلبه على أمره حتى انتهى إلى مكة المكرمة فطوقها ونصب المجانيق على الكعبة المشرفة وأهوى بالحجارة عليها . وفي الكعبة يومئذ أسماء بنت أبي بكر . وكان عبد الله يقاتل جند الحجاج مسنداً ظهره إلى الكعبة وليس حوله إلا القليل من رجاله . والحجاج يرسل له من يمنيه الخير ويعده بالأمان لو بسط يده بالبيعة .

ودخل عبد الله بن الزبير في أثر ذلك على أمه : فقال يا أمه خذلني الناس حتى أهلي وولدي . ولم يبق معي إلا اليسير ، ومن لا دفع له أكثر من صبر ساعة من النهار . وقد أعطاني القوم ما أردت من الدنيا فما رأيك ؟ قالت : الله الله يا بني إن كنت تعلم أنك على حق تدعوا إليه فامض فيه ولا تمكن من رقبتك غلمان بني أمية فيلعبوا بك . وإن كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك ومن

معك وإن قلت إني كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت نيتي فليس هذا فعل الأحرار ولا من فيه خير ، كم خلودك في الدنيا القتل أحسن ما يقع بك يا ابن الزبير . والله لضربة بالسيف في عز أحب إلى من ضربة بالسوط في ذل ، فقال : يا أماه أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني . قالت : يا بني إن الشاة لا يضرها السلخ بعد الذبح ، فامض على بصيرتك واستعن بالله . فقبل رأسها وقال لها : هذا والله رأيي . والذي قمت به داعياً إلى الله ، والله ما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله عز وجل أن تهتك محارمه ، ولكني أحببت أن أطلع على رأيك فيزيدني قوة وبصيرة مع قوتي وبصيرتي . والله ما تعمدت إتيان منكر ، ولا عملا بفاحشة ، ولم أجر في حكم ، ولم أغدر في أمان ولم يبلغني عن عمالي حيف فرضيت به ، بل أنكرت ذلك . ولم يكن شيء عندي آثر من رضاء ربي ، اللهم إني لا أقول ذلك تزكية لنفسي ولكني أقوله تعزية لأمي لتسلو عني ، فقالت : والله إني لأرجو أن يكون عزائي فيك جميلا ، أن تقدمتني احتسبتك ، وإن ظفرت سروت بظفرك ، اخرج حتى انظر إلام يصير أمرك . ثم قالت :

اللهم ارحم طول ذلك القيام بالليل الطويل ، وذاك النحيب والظمأ في هواجر مكة والمدينة ، وبره بأمه . اللهم إني قد سلمت فيه لأمرك ورضيت فيه بقضائك فأثبني في عبد الله ثواب الشاكرين . قال : يا أمه لا تدعي الدعاء لي قبل قتلي ولا بعده . فقالت : لن أدعه فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق ، فتناول يدها ليقبلها وقال : جئت مودعاً لأني أرى هذا آخر أيامي من الدنيا . قالت : امض على بصيرتك . وادن مني حتى أودعك . فدنا منها فعانقته وقبلته . فوقعت يدها على الدرع . فقالت ما هذا صنيع من يريد ما تريد ، فقال : ما لبستها إلا لأشد متنك . قالت إنها لا تشد متني فنزعها ثم درج لمته ، وشد قميصه وجبته ، وخرج وقال لأصحابه : احملوا على بركة الله وليشغل كل منكم رجلا ، ولا يلهينكم السؤال عني فإني على الرعيل الأول ، ثم حمل عليهم حتى بلغ بهم الحجون . وهناك رماه رجل من أهل الشام

بحجر فأصاب وجهه ، فأخذته منه رعده فدخل شعباً من شعاب مكة يستدمي . فبصرت به مولاة له . فقالت : وا أمير المؤمنين فتكاثر عليه أعداؤه عند ذلك وقتلوه وصلبه الحجاج وأقام جثمانه على الجذع . حتى إذا أمر عبد الملك بإنزاله أخذته أمه فغسلته بعد أن ذهبوا برأسه ثم كفنته وصلت عليه ودفنته) . رحمه الله ورحمنا . .

المساواة كما يراها الإسلام

لا تزال هناك أمور يحسن بحثها وربما كان في لقاء آخر بإذن الله لكنني سأتعرض وبسرعة لأمر طالما تحدث عنه الناس ، وطالما خدع بعضهم البعض الآخر بتمويه وجه الحقيقة فيه ، ذلكم هو المطالبة بالمساواة بين الرجل والمرأة . . وهو مطلب عادل إن كانت المساواة المطالب بها هي المساواة في دين الله ذلك المبدأ الأزلي العظيم الذي يقتضي توزيع الحقوق والواجبات بين الرجال والنساء على سبيل التكافؤ . أو المماثلة الواضحة في قول الله تعالى : (ولهن مثل الذي عليهن) . وما أوضحه القرآن الكريم من تقرير أن الرجل من المرأة والمرأة من الرجل في قوله تعالى : (فاستجاب لهم ربهم إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض) . .
أما حينما تتخذ المطالبة بالمساواة المزعومة مظهر التجاهل التام للفروق الواضحة بين الجنسين ، في الخلق ، والتكوين ، والموهبة ، والاستعداد فهي الخداع الواضح ، والقول المردود ، فالله تعالى أعلم وأحكم بخلقه من خلقه . ساوى بينهم في عقيدتهم إذا أخلصوها لله ، وساوى بينهم في الثواب على أعمالهم الصالحة إذا تساووا في حجم الطاعة والإيمان بالله ، لكنه تعالى اختص كل جنس بمواهب خاصة وقدرات معينة لا يقدر عليها غيره . لتتم عمارة الكون ويمضي أمر الله في خلقه كما أراد ويريد . وكانت الإجابة القاطعة في ذلك فيما روى أن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ومعها نسوة قالت : ليت الله كتب علينا الجهاد كما كتبه على الرجال فيكون لنا من الأجر مثل ما لهم . فنزل قوله سبحانه : (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا

الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليماً) وختام هذه الآية تأكيد واضح لما هو متقرر وراسخ من شمول علم الله بكل شيء . فهو العالم بعباده ، والمطلع على قدراتهم ونوازع نفوسهم ، وهو بعلمه الشامل الذي لا يشذ عنه شيء خلق الرجال ومنحهم ما يتلاءم مع دورهم في الحياة وخلق النساء ومنحهن ما يتلاءم مع دورهن ، وكلا الدورين يمضيان قدما بالإنسانية إلى مسيرتها في نظام بديع متقن . ولا تستقيم حياة الناس بدون الاعتراف بالحكمة الواضحة في كل ما تقع عليه العين من مخلوقات الله بشراً أو جماداً أو حيوناً . .

(ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) . بلى فهو يعلم من خلق قبل خلقه وبعد خلقه . يعلمه ويعلم ما يقيم حياته ، وما توسوس به نفسه . . والقائلون ان المساواة يجب أن تتم بين الجنسين في كل أمر . حتى في القدرات والأعمال . إنما يقولون ما لا دليل عليه من تكوين الفطرة ولا حتى من تجارب الأمم ولا من حكم المشاهدة والبداهة . بل قام الدليل على نقيضه في جميع هذه الاعتبارات، ولم تتجاهل الأمم فوارق الجنسين إلا كان تجاهلها لها من قبيل تجاهل الطبيعة التي تضطر من يتجاهلها إلى الاعتراف بها بعد حين ، ولو من قبيل الاعتراف بتقييم العمل بين جنسين لم يخلقا مختلفين عبثاً بعد أن غبرت عليهما ألوف السنين ، وأحرى أن يكون طول الزمن مع تطور الأحوال الاجتماعية سبباً لاختصاص كل منهما بوظيفة غير وظيفة الجنس الآخر ، ولا سيما في الخصائص التي تفترق فيها لغاية الحياة البيئية ، وكفاية الحياة الخارجة ، فإن طول الزمن لا يلغى الفوارق بل يزيدها، ويجعل لكل منها موضعاً لا يشابه سواه . والأمثلة لا تحصى منها احتفاظ الرجل بالقدرة على بقاء وظيفة النسل به ، طليقة ماصلحت بنيته حتى المراحل الأخيرة من عمره بينما هي غير ذلك في المرأة . حيث يندر أن تبقى لها تلك القدرة على التناسل بعد سن الخمسين ، وحتى في الأعمال التي انقطعت المرأة لها في غالب الأحوال كالطبخ ، وعمل الأزياء وصناعة التجميل ورثاء العزيز من الموتى . وهى أمور ، يبدو أنها مما تختص به المرأة لكن الرجل تغلب عليها من حيث

القدرة على أدائها – والبراعة في ذلك والقوامة التي وهبها الله للرجل على المرأة في قوله تعالى (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض)، لا تعني تفضيل معدن الرجل على معدن المرأة فهما شقيقان ينحدران من نفس واحدة وهو تفضيل لا يغض من قدر إنسانية المرأة ، لأنه ناشيء من تفرقة عضوية بينها وبين الرجل لا من تفرقة في الجوهر والمعدن . . ومثل هذه التفرقة لا تستوجب الأسى عليها فإن فضل الله معقود بتزكية النفوس ، لا بتفرقة عضوية اقتضتها حكمة الله لضمان استدامة حياة البشر وتكاملها . وفي الشبيه من ذلك قول الله تعالى : (والله فضل بعضكم على بعض في الرزق) فهل هذا التفضيل الإلهي النابع من الحكمة – التي قد يجهلها الكثيرون – هل هذا التفضيل يؤدي إلى انتقاص قدر المفضول في الرزق عند الله إذا أخلص له وعمل من أجله ؟ اللهم لا لكن من حكمته أن يخدم الناس بعضهم بعضاً وهكذا فالرجل يذهب في المجتمع ليحقق ما أراده الله له من انجازات ومهام . . والمرأة تذهب في المجتمع لتحقق ما أراده الله لها من أعمال ومهام وهل هناك أعظم أو أسمى من دور المرأة في تربية أطفالها وإعدادهم إعدادا متكاملا لخوض معركة الحياة ، فالأطفال هم الشباب غدا وهم الرجال بعد غد . . إذا لم يجدوا بجوارهم أماً تحنوا عليهم وتسبغ عليهم من عطفها وحمايتها ورعايتها مما هم بحاجة إليه . فإنهم يتحولون إلى ما يشبه الدمي وتتكون عاداتهم وطبائعهم بعيداً عن القلوب التي تخفق بحبهم ، وتعمل من أجل تكوينهم والمتناقضات التي يحياها شباب اليوم في كل مكان أليس من المعتقد أن من الأسباب وراءها أن أولئك عاشوا حياتهم بعيدين عن أحضان أمهاتهم وصدورهن المليئة بالحب .. قضوها في دور الحضانة ، أو لدى مربيات يمارسن عملهن كما يمارس الموظف عملا يعتبره وسيلة لكسب عيشه دون أن يشعر بمتعة ممارسته له . . وكثيراً ما كنت أسائل نفسي : هل احتياج الأطفال ينحصر في إعطائهم أقداراً من الحليب ، ووضع الملابس على أجسامهم ؟ وهل يكفي ذلك ليكون الطفل سوياً متكامل المشاعر ؟ وأجد الإجابة واضحة ،

في السلوك الماثل في واقع الأطفال الذين يحيون بين أحضان أمهاتهم وآبائهم وينعمون بحنانهن وحبهم . وأولئك الذين حرموا من تلك النعمة وبالتالي لا يصعب على المرء أن يلحظ ما يكتنفهم من اضطراب ، وما يشمل حياتهم من شذوذ .

إن رسالة المرأة هي بناء الأسرة وإدارة المنزل حتى تعيش مع أسرتها في جو هادئ مريح يبعث على النشاط المطلوب لاستمرار عمل الحياة ولا يمنع من ذلك أن تعمل في حال احتياجها أو رغبتها في المجالات التي يمكنها أن تؤديها بلا مخالفة لطبيعة تكوينها ، وواقع استعدادها والتي يمكنها أن تنجح في أدائها لاتفاقها مع إمكانياتها .

إن أي خروج على الطبيعة التي خلقها الله لنا ، وأودع فينا الاستجابة لانطلاقتها يعتبر تعطيلاً لحكمة الله في الخلق ، وسبباً للكثير من الآلام النفسية والحسية ، ومؤدياً للكثير من المتاعب التي يعيشها الناس ، ولا سبيل إلى عودة السعادة وهناء الحياة وسكينتها ، إلا بالإذعان لحكمة الله وبديع خلقه ، وممارسة الحياة كما أرادها الله ويسرها .

جعلنا الله جميعاً من العاملين من أجله ، المحققين لرسالته ، ولا حرمنا من التعرف على جليل حكمته ، وبديع صنعه .

حسن عبد الله آل الشيخ